المستقبل

AL-MUSTAQBAL

٢٤ صفحة ١٠٠٠ ليرة

الجزائر - لبنان: مشاهد من حياة متشابهة

حسن داوود

كان قصيراً، الحوار الذي أجري مع وردية عريس، المشاركة في المقاومة لتحرير الجزائر من سلطة الفرنسيين. ذاك لأنها كانت لوحدها في أثناء اجرائه، لا يحيط بها آخرون كثيرون كما حدث مع جميع الذين حاورهم محمد سوداني، مخرج الفيلم، والمصور الفوتوغرافي مايكل فون غرافنريد، قبل بضع سنوات من التقائهما بها، كان الفوتوغرافي مايكل قد التقط لها صورة تظهرها جالسة على درج ضيق يوصل، على الأغلب، إلى منزلها في الأعلى. في إحدى يديها كانت تمسك ببندقية قديمة الطراز ظلت محتفظة بها من أيام مقاومتها الفرنسيين، ربما. في تلك السنة، سنة الصورة، كان «الجيران» المنخرطون في التشدد والارهاب يقومون بغارات يغزون فيها البيوت، «لتنظيفها»، وكانوا يذبحون ساكني البيوت بالجملة، على ما قالت إحدى العائلات، أو من بقي منها، بعد أن أعملت سكين الذبح بثمانية من أفرادها. وردية عريس كانت، في تلك السنوات، تحرس بيتها الذي لم نعرف ان كان أحد سواها مقيماً فيه. ثم انها، مستعيدة تجربة التحرير في السنوات التي سبقت إتمامه في ١٩٦٢، راحت تدرب، بالبندقية القديمة ذاتها، نسوة الحي ليحرسن هن أيضاً بيوتهن. كان الحوار قصيراً معها، ولم يتطرق إلى ما يمكن ان يخطر في ذهن مشاهد الفيلم: هل استحق تحرير الجزائر، من الفرنسيين، كل ذاك العناء؟ أو كيف يمكن لبلد قضى مليون من أبنائه في تحريره، كيف يمكن لأبنائه هؤلاء ان يذبح بعضهم بعضاً.

ميخائيل فون غرافنريد كان هناك في حقبة المجازر، طائفاً في الأحياء الأكثر خطراً، وكان عليه ان يختلس صوره اختلاساً، بحسب ما نصحه أحد الجزائريين: لا تسألهم إن كانوا يسمحون لك بالتقاط الصور، صورهم فقط. ذاك لأنهم كانوا غير قادرين على تحمل مسؤولية ان يقولوا «نعم»، وذلك لأسباب بدت متخبطة في الفيلم، كان أسهل الاجابات من بينها «انهم يرفضون الصور لأسباب دينية».

الفيلم هو عودة إلى من التقطت صورهم ونشرت في كتاب راح يتنقل بين أيديهم. المرأة العجوز، المرتدية نظارات سميكة والتي لا يسعفها سمعها في فهم ما يقال لها، قالت، راسمة باصبعها خطاً قاطعاً للتأكيد على ما تقوله: «أنا لن أسامح، لن أسامحهم»، قاصدة أولئك الذين لا نعرف تماماً أين أصبحوا وكيف تفرقوا. الرجل الفاقد احدى عينيه والذي قصده الفيلم إلى دكانه ليرشد فريق التصوير إلى ابنته في المنزل، كان ما يزال هامداً، ساكتاً ومطيعاً إطاعة المنقاد إذ ما زال الخوف باقياً فيه على رغم انقضاء السنوات. أما ابنته، الباقية في المنزل لا تبارحه، فكانت مازجة الخوف بالحقد، التوحد بالصخب، وكل ذلك برغبة في الانتقام جعلت تخفف من حدته أمام زائريها الأجانب بقولها: لن أقتلهم، لكنني لا أريد ان يعودوا إلى العيش هنا في جوارنا.

ودائماً، في الحوارات الكثيرة، كنا نرى أيدي ترفع لتقول إنهم كانوا هنا، على مقربة، جيراناً أخذهم التشدد في عقيدتهم الى ذبح أولئك الذين كانوا يعيشون بينهم. لا نسامح، صاروا يقولون، واحداً بعد واحد، هكذا من دون أن يخطر لمشاهد الفيلم احتمال الإجابة عن سؤال من مثل: ماذا يعني رفضهم المسامحة، ما هي تبعاته، والى ماذا سيوصل. واذ كان أكثر هؤلاء من النساء بدا ذلك التشدد الرصيد الوحيد المتبقي لهن، محتفظات به لأنفسهن، مبقيات عليه ضرباً من الثأر الذي لن يتحقق ولن يؤخذ، لكن ماثلاً وفاء لمن قضوا.

وهؤلاء الناجون من المجازر، التقاهم الفيلم في بيوتهم أو في الأزقة المؤدية إليها. ذاك ان ما شهدوه أبقاهم هناك، حيث كانوا، فيما الجزائر تتنوع وتتبدل من دونهم. الصبايا والشبان الذين صورهم الفيلم محتشدين في الاستاد الذي تقام فيه حفلة غنائية لم يكونوا هناك، أيام المجازر، لذلك سهل عليهم أن يعيشوا الحياة كأن شيئاً لم يجر قبلها. وكذلك كان حال أولئك المشاركين في عرض الأزياء الذي لم ينقصه إلا بعض اتقان إضافي لكي يبدو مشهده شبيهاً بما تعرضه التلفزيونات عن معارض الأزياء العالمية.

الأمكنة العامة التي يصورها الفيلم هي أمكنة الصخب والحشد الذي لم تخلصه المناسبات الاحتفالية من عنفه. حتى وهن يقفن في الأستاد مرافقات المغنين على المنصة، تبدو الفتيات المراهقات كأنهن يصرخن احتجاجاً لا ابتهاجاً. هكذا كن، هن الناسيات لما حدث قبلهن، مازجات المسرة بالعنف. أما الشبان من مجايليهن فاحتجن الى رجال الشرطة يطوقون بينهم، حاملين العصي، وذلك في حفل غنائي.

تلك اللحظة المنقطعة عما سبقها، وعما يتلوها، باعثة على الخوف من ان يبحث ذلك العنف عن منافذ له، وأن يجدها. تلك الطاقة النائمة، أو المؤجلة، التي وجدت تجليا لها مرة في مواجهة المستعمر ومرة في قتل «الأخوة»، أبناء البلد الواحد.

في التقديم للفيلم ولمعرض الصور الفوتوغرافية المرافق، ذكر المنظمون (أمم - الهنغار) ان «ما من ريب في ان هذه المقاربة البصرية لمشهد العنف الجزائري لن تخلو من تذكير اللبنانيين بأشياء وأشياء من ماضيهم القريب ومن مغامرات العنف الأهلي التي ولغوا فيها».

ولن يبقينا ذلك المعرض في مكان صوره، في الجزائر، حيث سيخطر للجمهور المقبل على مشاهدته ان يعقد تماثلات توحي له بها تلك الوجوه التي، ان نحينا لهجة الكلام جانباً، تظهر شديدة القرب من الوجوه التي نعرفها هنا. ثم هناك مشاهد الذروة أيضاً، تلك التي تمثل وقوع لحظة العنف لا لحظة تذكرها. من ذلك مثلاً تلك الصورة التي يشهر فيها أحدهم مسدساً في وسط الشارع المأهول، مهدداً العيش بأنه لنْ يكون جارياً على رسله. على الفور ذكرتني تلك الصورة، الجزائرية، بصورة لبنانية مثلها لا أعرف كيف وصلتني ولماذا أبقيت عليها في درج المكتب كل هذه السنوات.

* «الجزائر: صور عن حرب بلا شواهد»، معرض فوتوغرافي وفيلم دعت «هنغار - امم» الى مشاهدتهما أول من أمس الجمعة، ويستمر عرضهما حتى العشرين من نيسان الحالي.

● لبنان

● الجزائر